# الكتب والمكتبات في الحضارة العربية والإسلامية

د. وفاء أحمد سعيد البياتي

## Libraries and books in Islamic Arab civilization

By Wafa`a A. Sa`eed AlBayati (phd)

The Arab nation is rich with heritage and glories and it has passed like other nations with various grades until it reached to what it now in the present time.

The Arab and Islamic libraries have got their shar from catastrophes and disasters of nation, but they have provided a civilizational mission and achieved the real meaning of their establishment and their role of keeping Islamic Arab Heritage.

The oldest libraries have been established in Iraq since the time of Babylon and Ashur.

Islamic libraries were distinguished by an advanced systems of classification and indexing.

The Iraqi libraries were exposed for looting after the occupation on ٢٠٠٣ and the unjust embargo, all these led to the scarcity of sources and modern references especially the traditional, islamic and historical sources and the manuscript which impacted negatively on researchers, students and their needs for sources.

# ((الكتب و المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية))

**الخلاصة :**

للكتب والمكتبات مكانة مهمة في تأريخ الحضارة العربية الإسلامية و التي كانت أحدى مميزاتها . فالعرب أحبوا الكتب كثيراً ، ودفعهم حبهم للكتاب الى الإهتمام به والمحافظة عليه و العمل على تطويره وتنميته وحفظه في خزائن الكتب أو مايطلق عليها في وقتنا الحاضر بالمكتبات . ولقد أحترم المسلمون الكتب لأن الدين الإسلامي حضَ على العلم التعلم ومَدَحَ العلم و العلماء في أكثر من سورة في القرآن الكريم . و الكتب هي الوسيلة الأولى التي كانت وماتزال تحفظ العلوم و الفنون والآداب التي تدون فيها .

توصلت الدراسة الى جملة من الإستنتاجات منها : أن الأمة العربية غنية بتراثها وأمجادها اللذين بنتهما خلال عصورها الماضية التي عاشتها على هذه الأرض رغم ما أصابها من نكسات ،لكنها وكغيرها من الأمم الأخرى مرت بأطوار ومراحل متنوعة حتى وصلت الى ماهي عليه في وقتنا الحاضر . وكان للمكتبات العربية الإسلامية نصيبها مما أصاب هذه الأمة ولكنها بالرغم من ذلك أدت رسالة حضارية نبيلة ، وحققت المعنى الحقيقي من إنشائها ودورها في حفظ التراث العربي الإسلامي و التراث العلمي .

**المقدمة :** يعد الكتاب والمكتبات مظهراً حضارياً في حياة الأمم و الشعوب المختلفة وعلى مدى التاريخ كله ، فحيثما وجدَ الإثنان في بقعة من بقاع الدنيا إلا وكانت دليلاً على ارتباطها بحضارةٍ ما بصفةٍ عامة وبالعلم والتعلم والتعليم بصفةً خاصة. فالكتاب أداة تثقيفية في حد ذاته ، وحيث لايوجد تعليم ومتعلمون وثقافة ومثقفون،فاننا لاينبغي لنا أن نتوقع وجود كتب أو مؤلفات . اما المكتبات فانها لاتوجد إلا كنتيجة طبيعية لكثرة المصنفات وإهتمام الناس بحجمها والحفاظ عليها وترتيبها بحيث يسهل الرجوع اليها.

ولم تظهر الكتب والمكتبات عند العرب إلا عندما تخلوا عن أميتهم واخذوا بأسباب العلم والمعرفة الدينية والدنيوية بعد انتشار الإسلام بينهم ، وبعد استجابتهم لما دعاهم إليه من بحث وفكر وتعليم . وعندما بدأوا بتأسيس المكتبات ساروا على نمط مكتبات الفرس واليونان وتأثروا بهم في جمع الكتب وتأسيس المكتبات.

ظهرت المكتبات في الإسلام وتطورت نتيجة لإنتشار العلم و المعرفة في العالم الإسلامي، فالمكتبات ساعدت على تطورهذه المجتمعات ودفعها في طريق الرقي والنجاح،

واستطاعت أن تكون كالمرآة التي تنعكس فيها حياة المسلمين وتظهركنتيجة طبيعية للحياة الجديدة التي وجدَ المسلمون فيها أنفسهم بعد عصر الفتوحات الإسلامية و الإستقرار الذي حصلوا عليه نتيجة هذه الفتوحات والتوسعات .

لقد كان للعلم والتعلم مكانة في الإسلام وفي الكتاب المنزل على صدر الحبيب المصطفى (عليه الصلاة والسلام) ،فهذا الكتاب ((القرآن الكريم)) كانَ وعاءً للمعرفة الدينية و الدنيوية ...الخ. وتضمن الكثير من السور والآيات التي تتحدث عن العلم مثل :

- " يَاَبَتِ اِنّى قَد جَاءَنى منَ العِلْمِ مَالَم يَاتِكَ" سُورَةُ مَريَم – الآية ٤٣.
- " وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ" سُورَةُ الحَجِ – الآية ٣ .
- " وَاَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكَ عَظيماً" سُورَةُ النِساء – الآية ١١٣ .
- " ذلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ العِلْمِ " سُورَةُ النَجْمِ – الآية ٣٠.
- " وَقُلْ رَبِّ زِدْنى عِلْماً " سُورَةُ طه – الآية ١١٤.
- " وَلَمَا بَلَغَ اَشُدَهُ آتَينَاهُ حُكْمَاً وَ عِلْماً" سُورَةُ يُوسُف – الآية ٢٢.
- " اِنَ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَاعَةِ " سُورَةُ لُقمان – الآية ٣٤.
- " ولا تَقْفُ مَالَيسَ لكَ بِهِ علِمٌ " سُورَةُ الإسرَاءِ – الآية ٣٦.
- " وَلَقَد اِختَرنَاهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى العَالَمينَ" سُورَةُ الدّخَانْ – الآية ٣٢.
- " يَرْفَعِ اللهُ الذَينَ آمَنُوا مِنْكُم وَالّذينَ اوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ" سُورَةُ المُجادَلَةِ: الآية ١١.
- " اَلرَحّمنُ عَلَمَ القُرْآنَ خَلَقَ الانسَانَ عَلَمَهُ البَيَانَ" سثورَةُ الرَحمَن – الآية ١-٤.
- " اِنَمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمؤاُ" سُورَةُ فَاطِر – الآية ٢٨.

كما أن السنة النبوية الشريفة مليئة بالأمثلة و الأحاديث في فضل العلم والتدليل على اهميته، فعن أبي الدرداء (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : "من سَلَكَ طَريقاً يَبتَغي فيهِ علِماً سَهّلَ اللهُ لهُ طَريقاً الى الجَنةِ ، وإنَ المَلائكَةَ لَتَضَعُ أجنِحَتَّها رِضَاءً لِطَالِبِ العِلمِ" و قالَ أيضاً " إنَ العلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنبياَء، إنَ الأنبياَءَ لَمْ يُوَرّثوا دِينَارَاً وَلاَ دِرهَمَاً إنَما وَرّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍ وَافِرٍ " رواه أبو داود والترمذي .

**هدف البحث :** يهدف البحث الى التعريف بالكتب و المكتبات ،وبيان أشهر المكتبات في التأريخ الإسلامي . وما هو دورها الحضاري الذي لعبته في تأريخ و حضارة الأمة

الإسلامية ؟ وماتعرضت له المكتبات من نكبات ، وواقعها الحالي اليوم و خصوصاً في العراق (بلاد الرافدين) بعد احداث عام ٢٠٠٣.

**الكتابة :**

تعد الكتابة أساساً للقراءة التي لاينتهي تأريخها ، أما بداياتها فقد اختلفت من حضارة لأخرى ومن مكان لآخر. والكتابة هي التدوين لأية لغة من اللغات ،ويعتبر اختراعها أعظم اختراع في تأريخ الإنسانية ،وبداية ظهورها انما هو بداية لعهدٍ جديد.ذلك لأن ظهورها هيأ للانسان إمكانية تسجيل المعرفة والأفكار وبالتالي نقلها الى الأجيال القادمة. ولهذا فان تراث الإنسانية لم يكن ليصلنا لولا الكتابة أولاً و المخطوطات ثانياً.

والكتابة عامل أساسي في الحضارة ،إذ انه بالكتابة يقيم الانسان اتصالاً مع أخيه الانسان كما انه يدون ما يدور ويجري حوله للأجيال القادمة . وفي الكتابة يخزن الانسان عصارة تجاربه وتفاعلاته ، وما الحضارة إلا سلسلة من التفاعلات بين الانسان و الانسان وبين الانسان و الطبيعة.[١]

لقد ظهرت أول بوادر الكتابة قبل حوالي ٥٥٠٠ سنة في الهلال الخصيب ،وبالضبط مع حضارة وادي الرافدين ،وقد إزدهرت هذه الحضارة لحوالي ٢٠٠٠ سنة ،وعرفت كتابتهم بالكتابة المسمارية أو الإسفينية ، وكانت تكتب على الطين ومن ثم يشوى الطين ليصبح فخاراً(الرقم الطينية). أما في الحضارة المصرية القديمة والتي تلت حضارة وادي الرافدين تطورت الكتابة (الهيروغليفية) لتدوين الكتابات الدينية والمقدسة. واستنبط المصريون القدامى أبجدية من ٢٤ رمزاً يمثل كل واحد منها حرفاً ساكناً معيناً. وهكذا صارت لديهم طريقة للكتابة.[٢]

لم يهتم العرب بالكتابة في عصر الجاهلية، ولذا جاءت أبجديتهم متأخرة بعض الوقت عن باقي الأبجديات. ويعود السبب الى ان معظم القبائل العربية كانت من البدو ولم يكن لهؤلاء حاجة أو ثقة بالكتابة ،وبدأ انتشارها يبرز للعيان في شمال الجزيرة العربية ، وفي الحيرة ومن بعدها في الحجاز ومن ثمَ في مكة ، ولم تأخذ الكتابة العربية دورها الكبير إلا عندما قرر الخلفاء الراشدون تدوين القرآن الكريم ،وكان ذلك في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في منتصف القرن السابع الميلادي ،ومع انتشار القرآن والدعوة الإسلامية في عموم الأقطار ، انتشرت الكتابة العربية انتشاراً واسعاً حتى صارت من

---

١ - حسين مطر . نشأة الكتابة وتطورها. مجلة الفيصل، ع١٠، ١٩٧٨ ، ص١١٣١-١٣٨.

٢ - المصدر السابق...ص١٣٦.

أكثر الكتابات انتشاراً في العالم . هذا الإنتشار كان مدعاةً لكتابة العديد من الكتب والمخطوطات التي تضمنت وحفظت كل ما أنتجه العقل العربي والإسلامي من مصنفات ورسائل ومخاطبات موضوعاتها **كتاب الله الكريم (القرآن) وأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)** أو ما يتعلق بهما ، فجعلوا منها تحفاً فنية ثمينة وتركوا فيها تراثاً عظيماً، احتفظت به العديد من المكتبات والمتاحف في العالم . وتجدر بنا الإشارة الى تركيا والتي فيها مايربو على مائة واربعة وعشرين الفاً من المخطوطات النادرة معظمها لم يدرس من قبل، وكذلك ماموجود في مصر و العراق والمغرب والعديد من الدول العربية ،بالإضافة الى المتاحف والمكتبات العالمية وغيرها.

إن توفر أدوات الكتابة كان هو الآخر عاملاً مهماً في ظهور الكتب ، فقديماً كان البردي يستخدم للكتابة في مصر واستعمل كونه مادة لينة للكتابة عند قدماء المصريين منذ الألف الثالث ف.م. ، وانتقل الى بلاد اليونان في القرن السادس ق.م. ، و روما في القرن الثاني ق.م. ، وبفضله انتشرت المصنفات وكتب الدين تحديداً في أوربا في القرون المسيحية الأولى.

أما العرب فكانوا قبل ظهور الإسلام وبعده يكتبون على الرق (جلود الحيوانات) أو على اللخاف (حجارة بيض رقاق) . أو على عُسب النخل (وهي الجريد الذي لاخوصَ فيه)، أو على عظم أكتاف الإبل و الغنم . فعلى اللخاف و العُسب كانوا يكتبون القرآن . وعرفوا المُهرَق (وهو ثوب حرير أبيض يصقل ويعالج بالصمغ ثم يكتب عليه).[١]

ثم استخدموا البردي منذ فتحهم مصر ووجدوه أيسر تناولاً وأرخص سعراً من الرق الذين ظلوا يستعملونه مع استعمالهم البردي ،فقد ظل للرق استعمالاته الخاصة في كتابة المصاحف التي يراد لها أن تبقى بحالة جيدة زمناً طويلاً ،الى أن ظهرت صناعة الورق وانتشرت في كثير من البلدان الإسلامية وأولها أنشأ في سمرقند ، وكانت تنتج نوعاً نفيساً منه وعرفَ بالكاغد السمرقندي . ثم أنشأت له معامل في بغداد ودمشق و طرابلس الشام وشاطبة (في الأندلس) وغيرها من البلدان.[٢]

إن الحديث عن الكتابة في بادئ الأمر ضروري ومهم فوجودها كان مدعاة الى تدوين كل مايدور من أحداث وقصص وعجائب و ابتكارات... وغيرها، هذا التدوين كان في

---

١ - ألفرد هسل . تأريخ المكتبات . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٠ ، ص٢١.

٢ - كوركيس عواد . خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصورحتى سنة ١٠٠٠ للهجرة . بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٩٨٦ ، ص ٤٢-٧٦.

الكتب أولاً والمخطوطات ثانياً لكننا في بحثنا هذا سنستعرض الكتب فقط كون الحديث عن المخطوطات يتطلب ان تفرد له صفحات خاصة به.

*** الكتب - BOOKS :**

تعد كلمة كتاب من الكلمات التي شاع استعمالها الى حدٍ ما أفقدها دلالتها الإصطلاحية المحددة. والكتاب والمكتبة من أصل لغوي واحد يدل على الكتابة والتدوين وحمل الرسالة وربما كان ذلك في تعدد معاني الكلمة ، ولذلك نجد بعض المصطلحات المرادفة للكتاب مثل : الوثيقة ،المطبوع ،المصنف وغيرها.[١]

وهناك تعريفات مختلفة للكتاب نذكر منها :

* أحد أجزاء عمل فكري ،نشرَ مستقلاً ،أوله كيان مادي مستقل ، على الرغم من ان ترقيم صفحاته قد يكون متصلاً مع مجلدات أخرى.[٢]
* مجموعة من الأوراق المخطوطة أو المطبوعة ،المثبتة معاً لتكون مجلداً أو عدداً من المجلدات ،بحيث تشكل وحدة ورقية واحدة .[٣]
* أي عمل مخطوط أو مطبوع ،لايقل عدد صفحاته عن خمسين صفحة ويتكون من مجلد واحد أو أكثر ،سواء أكان ترقيم صفحات المجلد متصلاً أو غير متصل ، ويمكن أن يتناول موضوعاً واحداً أو عدداً من الموضوعات المتجانسة ،أو التي تجمعها خاصية واحدة أو أكثر . ومن الممكن أن يصدر في طبعات متعددة ، وليست له صفة الدورية.[٤]

وقد تطورت الكتب عبر العصور من حيث الشكل والموضوع ، كما ساهمت في الإنفجار العلمي والمعرفي والمعلوماتي بعد أن أصبحت من أكثر وسائل الإتصال نقلاً للمعلومات (بالرغم من تطور التقنيات والوسائل التكنولوجية الحديثة كالإنترنت وغيرها).

---

١ - حشمت قاسم. مصادر المعلومات وتنمية مقتنيات المكتبة . القاهرة ، دار غريب ، ١٩٨٥ ، ص٦١.

٢ - Harrods Librarian Glossary.٥th ed. N.Y. , MacGraw Hill,١٩٨٤.

٣ - عبد الوهاب شرف الدين. المعجم الموسوعي لعلوم المكتبات والتوثيق والمعلومات. الرياض، دار المريخ ، ١٩٨٨، ص٦٩.

٤ - حشمت قاسم . مصدر سابق...ص٦٢.

فهذا المصدر من مصادر المعلومات يمتاز عن غيره في العديد من الجوانب نـــذكر منهـــا على سبيل المثال : [١]

١. قدرته على ضم العالم بكل أبعاده الزمانية و المكانية بين صفحاته .
٢. رخص ثمنه مقارنةً مع غيره من مصادر المعلومات .
٣. سهولة حمله وتداوله ونقله من مكان الى آخر دون عوائق أو حواجز .
٤. يكون دائماً في متناول اليد ، وليس له مواعيد محددة كالقنوات الفضائية و البرامج التلفزيونية ويمكن نقله من مكان الى آخر .
٥. لايحتاج الى كهرباء ولا الى أي جهاز لتشغيله كما هو الحـــال مـــع غيـــره مـــن المصادر الألكترونية للمعلومات.

وقد ساهم الكتاب بشكل واضح في الإنفجار المعرفي الذي يشهده العالم منذ مدة بعـــد أن تطورت صناعته . وتشير المصادر في هذا المجال الى مايلي:[٢]

١. عدد الكتب التي ظهرت في أوربا قبل اختراع غوتنبرغ للطباعة (٣٠ ألفاً) .
٢. عدد الكتب في نهاية القرن السادس عشر حوالي (٤٠ ألفاً) .
٣. مابين عام ١٦٠٠ و ١٧٠٠ وصل عدد الكتب الى (مليون ونصف المليون كتاب).
٤. مابين عام ١٧٠٠ و ١٨٠٠ وصل عدد الكتب الى مليونين .
٥. حالياً يصدر في كل عام أكثر من مليون كتاب جديد .

وقد لعبت التطورات التي طرأت على صناعة الورق وعلى الطباعة دوراً هاماً فـــي حركة إنتاج الكتب ونشرها بشكل واسع حتى أصبح الكتاب في وقتنا الحاضـــر يخـــرج وينتج بأشكال وأحجام مختلفة ومنها الكتاب الورقي ،الكتاب الألكتروني ،الكتاب الرقمي.

وللكتاب جذور عميقة في الحضارة العربية الإسلامية فقد أزدهرت صناعته وبخاصة بعد دخول صناعة الورق الى بغداد وغيرها من مراكز الحضارة العربية الإسلامية. كمـــا لعبت حركة الوراقين دوراً بارزاً في انتشار الكتاب الإسلامي قبل اختراع الطباعة ، وقـــد تأخرت صناعة الكتاب في البلاد العربية عنها في أوربا مدة تزيد عن ثـــلاث مئـــة ســـنة،

---

١ - عمر همشري ومصطفى ربحي عليان. أساسيات علم المكتبات والتوثيق والمعلومات. عمـــان، دار الرؤى العصرية، ١٩٩٦، ص ٨٢-٨٣.

٢ - حشمت قاسم. مصادر المعلومات... مصدر سابق. ص٦٢.

وذلك لأن الطباعة لم تدخل اليها إلا في القرن التاسع عشر وبـــدايات القـــرن العشـــرين. ويعود ذلك الى الظروف السائدة في تلك الفترة وإرتفاع نسبة الأمية.[١]

*** المكتبات – LIBRARIES .**

إن ظهور الكتاب ومراحل تطوره وكل مامر به منذ بداياته وليومنا هذا مَهَـدَ لنشـــوء ووجود المكتبة . فما هي المكتبة ؟ وكيف كانت بداياتها ؟

- المكتبة كما عرفتها اليونسكو[٢] في اجتماعها السنوي وبمختلف مسمياتها هي : كل مجموعة منظمة من الكتب المطبوعة و المطبوعات المسلسلة أو أي وثائق أخرى ســـمعية وبصرية ، بالإضافة الى خدمات الموظفين المكلفين بتسهيل استعمال هذه الوثائق لأهـــداف التربية و البحث و الترفيه.

نستنتج من هذا النعريف إن المكتبة تقوم بوظائف اساسية هـــي تخـــزين المعلومـــات ومعالجتها وتسهيل الوصول اليها وإسترجاعها . وقد جاء تعريف اليونسكو نتيجة واضـــحة لواقع موجود منذ الآف السنين والتي كان هدفها الأساسي و الرئيسي هو جمـــع مصـــادر المعلومات في مكان واحد وفهرستها أو تنظيمها بطريقة معينة وحفظها لتصل فيما بعد الى الأجيال اللاحقة.

- المكتبة كما عرفها قاموس أكسفورد والذي ورد في كتاب ربحي عليـــان[٣] : انهـــا غرفة أو مجموعة من الغرف تحتوي على مجموعة من الكتب و المواد المكتبية الأخـــرى لغرض استخدامها من قبل عامة الناس أو مجموعة خاصة منهم أو مجموعة تابعة لهيئة أو جمعية أو ماشابهها.

- المكتبة : مكان أو مبنى أو حجرة أو حجرات معدة لحفظ واستعمال مجموعات من الكتب و المواد الأخرى المحفوظة للقراءة و الدراسة و الإستشارة .[٤]

- المكتبة : هي تلك المؤسسة الإجتماعية التي ترتبط بمؤسسة إجتماعية أكبـــر منهـــا وتعمل عن طريقها لخدمة المجتمع وتطويره بصورة مباشرة أو غير مباشرة.[١]

---

١ - مصطفى ربحي عليانن. الكتب والمكتبات في الحضارة العربية الاســـلامية. عمـــان، دار الصـــفا، ١٩٩٦، ص٦٧.

٢ - اليونسكو. المؤتمرالسنوي الـــ١٦ المنعقد في ١٣/نوفمبر –ت ١٩٧٠/٢.

٣ - عمر همشري وربحي مصطفى عليان .مصدر سابق..ص ٢١

٤ - محمد أحمد الشامي وسيد حسب الله . المعجم الموســـوعي لمصـــطلحات المكتبـــات والمعلومـــات. الرياض، دار المريخ للنشر، ١٩٨٨، ص٦٥٢.

ومن كل التعاريف السابقة أصبح بأمكاننا أن نضع تعريفاً شاملاً للمكتبة كونها في الأساس مؤسسة أوجدها الإنسان لخدمته من خلال قيامها بضم وجمع الثروة الفكرية الخاصة به وبغيره وتنظيمها وتسليمها للأجيال اللاحقة. كما ويمكن القول بأن المكتبة هي تلك المؤسسة الثقافية والتربوية والإجتماعية التي وجدت لتضم بين جدرانها مجموعات محددة من المواد المكتبية وغير المكتبية ومصادر معلومات مختلفة بدءاً من المخطوطة وانتهاءتً بالمصادر الحديثة المزودة للمعلومات كشبكة الإنترنت وخدمة البحث الآلي المباشر ، وتنظمها وترتبها وتحفظها وفق أنظمة وطرق معينة ، ويتولى مسؤوليتها بالكامل منذ لحظة دخولها الى المكتبة مجموعة من الأفراد المدربين يدعون بالمكتبيين وحالياً (أخصائي المعلومات) .

**- مكتبات الحضارات القديمة في العراق:**

المكتبة في تلك الحقبة الزمانية القديمة عرفت بأنها مجموعة مصنفة من الأعمال والمؤلفات . وظهرت حتى قبل المكتبات اليونانية الشهيرة برجاموس والإسكندرية ، فان الشرق الأدنى القديم قد أمتلك تلك المجموعات ، وأحياناً نجد إن كلمة "مكتبة" قد تم استخدامها بشكل سيئ في هذا السياق فالألواح التي تم العثور عليها في قصور(( إبلا- EBLA)) و((ماري-Mari)) لم تكن مكتبات بل أرشيف. وعلى الجانب الآخر فإن مكتبة (آشوربانيبال- Assurbanipal) في نينوى – Ninive يبدو انها تحقق هذا المعيار، فالملك الآشوري الذي حكم في منتصف القرن السابع قبل الميلاد ،قد جمع مجموعة في قصره تتكون من أكثر من ألف لوح مسماري ،وكان يسمى الملك المثقف إلان هذا خطأ في التسمية ،فنوايا الملك آشوربانيبال لم تكن نوايا جامع متعلم بل أراد الملك ان يزود العلماء الذين هم مسؤولين عن حمايته من أطباء وعلماء فلك (عرافين وسحرة) بموارد كثيرة لكي ينفذوا عملهم. وبدلاً من المكتبة التي نعرفها اليوم ، فان هذه المجموعة كانت ترسانة للصياغات السحرية الدينية التي تستخدم كأسلحة لحماية الملك، وهذا يفسر سبب أحتواء المكتبة على أدب بسيط جداً مثل الأساطير والملاحم ، فلقد تم العثور على اربعين لوحاً فقط من هذا النوع مقارنةً بعدد ضخم من الألواح التي تتعامل مع الكهانة والتعويذ... الخ. ويوجد حوالي ثلاثمائة لوح للكهانة (عرافة، تفسير أحلام، وهكذا...) وحوالي مائة

---

١ - أحمد بدر. المكتبة و المجتمع. مجلة مكتبة الجامع. مج١، ع٣، ١٩٧٢، ص١٣.

لوح تتكون من لعنات ودعوات مثل دعاء القربان المقدس للتطهير من الآثام من خلال (الخرق) يغطي عشرة ألواح ، وتحتوي على عدد ضخم من الإبتهالات. وقد جاء جزء آخر من المكتبات الآشورية الخاصة مثل مكتبة الكاتب الملكي . ولقد تم نسخ ألواح أخرى لحاجات الملك وحاشيته.[١]

لقد جند آشور بانيبال[٢] عدداً من الموظفين و النساخ وأمر بجمع تراث البابليين والآشوريين في مختلف فروع المعرفة وأمربأن تودع في المكتبة التي أقامها نسخ من المدونات الهامة :كتب أو رسائل أو وثائق مصنفة تحت رؤوس موضوعات ستة : التاريخ والقانون والعلوم و السحر و العقائد و الأساطير ، فبلغت محفوظاتها ثلاثين ألفاً من الألواح التي تسجل أدب الآشوريين وتأريخهم وحروبهم ووثائقهم الرسمية ومراسمهم الملكية ، مرتبة في مجموعات ، بحيث لاتختلط ألواح النص الواحد بغيرها ، فكان كل لوح يحمل عنوان السلسلة التي يأتي ضمنها ، ويبدأ بتكرار السطر الأخير من اللوح السابق عليه حتى إذا كان اللوح الأخير من النص ذكر فيه عدد الألواح التي يشملها الكتاب كله.

إن الحديث عن المكتبات في حضارة وادي الرافدين واسع ومتشعب ، وما ذكرناه من مثال (مكتبة آشور بانيبال) ما هو إلا جزء يسير مما كتب وقيل عنها ،فهي مكتبة أو خزانة كتب (كما كانت تدعى في بداياتها) وسط العشرات من خزائن الكتب العديدة التي كانت موجودة ومعروفة في العراق مثل خزانة نفر أو نيبور- Nippur ، خزانة سبار ، خزانة الجمجمة ، خزانة كيش ،خزانة الوركاء ،خزانة تَل حَرمَل ، خزانة آشور ، خزائن المدائن (طيسفون) وخزائن اخرى عديدة . ومما تجدر الإشارة اليه إنَ من أَجَل المدن التي لم يوفق العلماء لإكتشاف خزائنها مدينة بابل . فان هذه المدينة على عِظَم شأنها وبعد صيتها مازالت خزائن كتبها لم تصل اليها معاول المنقبين الآثاريين كما كان ينتظر ،بالرغم من إن آلافاً مؤلفة من ألواحها عثرَ عليها الأهالي أثناء حفرياتهم غير المشروعة فتسربت منهم الى ديار الغرب ونشرَ كثير منها في جملة مطبوعات.[٣]

---

١ - اسماعيل سراج الدين (تقديماً) و خالد عزب (تحريراً) . تأريخ الكتابة من التعبير التصويري الى الوسائط الإعلامية المتعددة (مترجم من الفرنسية الى االعربية)، الاسكندرية، مكتبة لاسكندرية، ٢٠٠٥، ص٤٢.

٢ - حسين مطر. مصدر سابق...ص١٣٣.

٣ - كوركيس عواد. مصدر سابق...ص٤٢-٧٦.

**المكتبات في حضارة بلاد الشام .**[1]

في عام ١٩٢٩م عثرَ على آثار مكتبة في رأس شمرا (أوغاريت – في سوريا)، ترجع الى الألفية الثانية قبل الميلاد ،كما عثر في زابوتا (تقع في سوريا) على مكتبة كاملة من الألواح الطينية (الرقم) بعضها مكتوب بالهيروغليفية، وبعضها بحروف هجائية سامية، وأكبر الظن انها تعود الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد لأن الوقائع التأريخية تشير الى إن زابوتا قد دمرت حوالي عام ١٢٠٠ ق.م. قبل ان تستكمل نموها .وتشير البحوث التاريخية الى مكتبة اخرى ولدت في شرق البحر المتوسط ، بعد قرن تقريباً من أنشاء مكتبة الاسكندرية ،ووقفت منها موقف الند وهي مكتبة برجاموس التي أنشأها الملك الروماني أثالوس الأول (٢٦٩-١٩٧ ق.م) وكان لها اربع قاعات يتصل بها رواق يتخذ مكاناً للقراءة ،لأنه يحمي من تقلبات الجو ،ولإن القراءة حينئذٍ كانت بصوت مسموع لاتناسبها القاعات المغلقة .وقد نشأت هذه المكتبة في رحاب معبد ديني ،وكانت تضم حوالي سبعة عشرالفاً من لفائف البردي ،وبلغت حوالي مئتي ألف في العام (٤١ق.م.) حين اهداها انطونيو الى كليوباترا.

إن المكتبات التي عثرعليها في بلاد الشام وبلاد الرافدين كانت تحتوي غالباً على وثائق مكتوبة على ألواح مصنوعة من الفخاروالاجر و الطين إضافةً الى الوثائق المكتوبة على ورق البردي ، بينما كان المصريون القدماء يستعملون البردي فقط لكتابة وثائقهم .

**المكتبات في الحضارة المصرية القديمة .**

مصر القديمة هي التي حثت الشعوب على التدوين و التوثيق . ففي مبادئ الفراعنة:" إن مالم يقيد في وثيقة يعد غير موجود" ، ومن البديهي –بعد ذلك- ان امتلأت آثارهم بالرسوم و الكتابة ،وأصبحت وظيفة الكاتب عندهم تحتل المرتبة الأولى في وظائف الدولة، وأصبحت صورة هذا الكاتب عندهم مألوفة في مختلف الآثار الفرعونية ، فهو وفي كل هذه المخطوطات و الرسوم يكون متربعاً على الأرض ويبسطَ أمامه الملفات والوثائق و القرطاس منشورة في حجرة يدون فها بالقلم مايسمع و يرى. فقد أنشأ الملك الفرعوني (خوفو) مكتبة بأسم (بيت الكتابات) سنة ٢٥٠٠ق.م. ، وكذلك بنى الملك رمسيس الثاني مكتبة في قصره ضمت أكثر من عشرين ألفاً من ملفات البردي ،كما أنشأ عدداً كبيراً من المكتبات كانت تعرف باسم (المكتبة المقدسة). ولقد تم الكشف عن الكثير

---

١ - محمد مصطفى صوفية. من مكتبة المخطوطات العربية. مجلة الوثائقو المخطوطات ، س١، ع١، ١٩٨٦. ص ٣٢٧-٣٣٦.

من الكتابات المصرية القديمة على البردي ،وكثير من الوصايا والتعاليم الدينية والأخلاقية، تدل على ان قدماء المصريين عرفوا التوثيق و الكتابة منذ خمسة آلاف عام.[١]

وفي العصر البطليمي كانت الاسكندرية المركز الرئيسي للوثائق الرسمية ،حيث كان أرشيف الدولة ودار وثائقها في القصر الملكي في منطقة لوخياس. أما في العصر الروماني فقد أسس الإمبراطور هارديان دار الوثائق العامة في السرابيوم ،كما أنشئت دور للوثائق في عاصمة كل اقليم وهكذا ، كانت الأوضاع مهيأة لنشوء المكتبات منذ آلاف السنين ، فقد وجدت دار للكتب منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد ،وفي الألف الثانية قبل الميلاد كانت ثمة مكتبات تحوي برديات مطوية ومحفوظة في جرار مصفوفة ومرتبة على الرفوف ،وكانت مكتبة الإسكندرية أشهر المكتبات في مصر قبل الفتح الإسلامي . وقد أدت دوراً خطيراً في تأريخ الحضارة الإنسانية ،إذ حفظت لنا تراث اليونان القدماء، وترجمات التراث الإنساني في مختلف اللغات . ويعود الفضل في ذلك الى العلماء والباحثين الذين كانوا يعملون فيها ،والى موقع المدينة في الخارطة الحضارية العالمية. ولكن هذه المكتبة العظيمة أحرقت زمن الرومان ، عندما أضرم قيصر النار في المدينة عام ٤٧ق.م. ،وحين فتح العرب مصر حفظوا ما تبقى من محتوياتها ، وأصبحت مادة غنية لحركة الترجمة في العصر العباسي. ومالبثت هذه الآثار اليونانية المنقولة الى العربية أن صارت ميراثاً للإنسانية كلها ،منذ أن بدأت أوربا تتصل بالحضارة العربية في القرن الثاني عشرللميلاد.[٢]

**المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية.**

في بادئ ذي بدء تجدر بنا الإشارة الى معنى كلمة الحضارة بشكلها العام المختصر.

الحضارة : وتعني الحصيلة الشاملة للمدنية و الثقافة فهي مجموع الحياة في صورها وأنماطها المادية والمعنوية.[٣]

ويمكننا القول بأن الدولة الإسلامية التي أنشأها الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) التي استمرت بوجود الخلافة في فترات الحكم الأموي و العباسي قد أهتمت بالعلوم

---

١ - المصدر السابق...ص٣٢٧.

٢ - نفس المصدر السابق...ص٣٢٨.

٣ - محمد سبع توفيق. قيم حضارية في القرآن الكريم: عالم ماقبل القرآن، ج١، القاهرة، دار المنار، (د.ت.)، ص٣١.

والنواحي الدينية فكانت هذه الحضارة الإسلامية مازجة للعقل والروح وبذلك اختلفت عن الكثير من الحضارات السابقة كالحضارة الرومانية والفارسية واليونانية والتي كانت مجرد امبراطوريات ليس لها أساس من علم ودين .والدليل على ذلك مالاحظناه في فترة من فترات الزمان ، فبينما كانت الحضارة الإسلامية تموج بديار الإسلام من الأندلس غرباً لحدود الصين شرقاً في عهد الدولة الأموية ، كانت أوربا وبقية أنحاء العالم تعيش في جهل وظلام حضاري.

ولقد كان العرب في بداية عهدهم أميين لايعرفون غير كتب الدين وخصوصاً بعد نزول القرآن الكريم الذي أطلق على أصحاب الديانات السماوية الأخرى أسم "أهل الكتاب" فالشعركان يتناقل شفاهاً ولم يدون إلا نادراً لجهل العديد من الشعراء بالقراءة و الكتابة لذلك ضاعت المعلقات على سبيل المثال ولم يصلنا إلا القليل منها. ولهذا فان تاريخ الكتب والمكتبات عند المسلمين لم يبدأ إلا مع إنطلاق الدعوة الإسلامية وإنشاء دولة المسلمين ، إذ كلف الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) الأسرى بعد معركة بدر بتعليم عشرة من صبية المسلمين القراءة و الكتابة كفديةٍ لهم.

وكان القرآن الكريم أول كتاب ظهر باللغة العربية واهتم المسلمون بتدوينه وضبط آياته إضافةً الى الإهتمام بتدوين الحديث الشريف ، وكانت هذه هي البداية الحقيقية لبداية الكتابة والتوثيق في الإسلام.

وبعد كل ماسبق يمكننا أن نشير الى المراحل التي تلت هذه الفترة التي ظهرت ونمت فيها رسالة الإسلام و الدين الإسلامي اللتان حثتا على العلم و التعلم وإكرام العلماء ويمكن أن نشير الى هذه المراحل وكالآتي :-

**١ــ المكتبات في عصر الدولة الأموية .**

شهد هذا العصر بدايات حركة النقل و الترجمة ، بعد أن اتصل العرب بعد الفتوحات الإسلامية بالحضارتين اليونانية والرومانية في مصر وبلاد الشام ، والحضارة الفارسية في إيران ، والسريانية في العراق وبين النهرين . وبمبادرة من الخليفة العالم خالد بن يزيد بن معاوية الذي زَهَدَ في الحكم وإلتَفَتَ الى أداء دور علمي فعال. ويقال إنه صاحب أول مكتبة خاصة في الإسلام . وقام بتكليف أحد العلماء ويدعى أصطفان (وهو من الإسكندرية) بأن ينقل له من اللغتين اليونانية و القبطية الى العربية عدداً من الكتب العلمية

تناسب شغفه بالعلوم وخصوصاً علم الكيمياء إذ اهتمَ بالصنعة وتحويل المعادن الى ذهب، وكذلك الإهتمام بعلم النجوم.[١]

وكانت الترجمة في هذا العصر تتم وبمحاولات فردية تزول بزوال أصحابها، اقتصرت حركة الترجمة هذه على العلوم العملية و النجوم والطب . وقد أجاز الخليفة عمر بن عبدالعزيز الترجمة فيها لأنها لاتمس الدين الإسلامي ولاتؤثر عليه . ولم يتم ترجمة العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والهندسة ، ولم تتحول الترجمة الى عمل أمة والى مدرسة للترجمة إلا في عصرالدولة العباسية . وقبل أن ينتصف القرن الأول الهجري كانت المؤلفات العربية تتوالى لكنها لم تكن من الكثرة بحيث تكون مكتبات واسعة. ولكن قبل ان ينتهي عصر الدولة الأموية وجدت مكتبات المساجد (التي أتخذها المسلمون مكاناً للتعليم بجميع مراحله) والتي أنتشرت في الحواضر الإسلامية كدمشق (عاصمة الدولة الأموية) إضافةً الى مكتبات الملوك ، وبغداد (عاصمة الدولة العباسية) والقاهرة قرطبة وعدد من المكتبات الخاصة ، وبعض المكتبات العامة.[٢]

لقد بدأ الإهتمام بالكتب في هذا العصر منذ بدايته في زمن معاوية بن أبي سفيان وتطور وتوسع الى أن وصل الى ماوصلت عليه في نهاية عصر هذه الدولة ، والذي إزداد ونما وتطور بقدوم عصر آخر هو عصر الدولة العباسية.

**٢ــ المكتبات في عصر الدولة العباسية .**

إذا كان العصر الأموي هو بداية التأريخ العربي للترجمة و الكتب و المكتبات ،فان العصرالعباسي كان فترة نضوج و إزدهار . فقد اهتم أبو جعفر المنصور في بادئ الأمر بالطب والتنجيم لحاجته الى الطب في التداوي وإعتقاده بوجود صلة ما بين علم النجوم والطالع من نحسٍ أو سعد الطالع. وفي أقل من خمسين عاماً من عمر الدولة العباسية كانت معظم العلوم التي وجدت في ذلك الوقت قد دونت ونظمت في سجلات وكتب وأوراق مثل مايتعلق بالدين الإسلامي والقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والفقه والشريعة والتفسير سواء للقرآن أو ماله علاقة بالإسلام ، بالاضافة لذلك كانت حركة الترجمة قد نشطت وإزدهرت ونمت بشكل ملحوظ وكانت حركة التأليف قد نشطت أيضاً وبرز العديد من العلماء الذين كتبوا وألفوا العديد من الكتب التي مازال بعضها ليومنا هذا. هذا النشاط وإزدياد حركة التأليف وإنتشار المكتبات المليئة بالكتب حدى بابن النديم الى

---

١ - مصطفى ربحي عليان. مصدر سابق...ص٧٨.

٢ - مصطفى ربحي عليان. مصدر سابق...ص٧٨.

جمع عناوينها ومعلومات عنها في كتابه "الفهرست" والذي يعد أول ببلوغرافيا عربية في التأريخ تصدر وتجمع بين صفحاتها عناوين الكتب المؤلفة في حينها ومؤلفيها.

لم تكن المطابع معروفة في عصر الدولة العباسية بل كان هناك كتاب وناسخون ،وقد ازدهرت عملية النسخ وتجليد الكتب وزخرفتها وتحليتها أحياناً بالذهب ، وقد كتبها أمهر الخطاطين في ذلك الوقت ومنهم ابن البواب ، ابن مقلة ... وغيرهم . وكان يطلق على من يقوم بعملية النسخ هذه بالنساخين الذين سعوا الى فتح العديد من الحوانيت التي انتشرت في أماكن عدة وكان يصار فيها الى نسخ وتصحيح وتجليد العديد من الأمور المتعلقة بهذه المهنة والتي أطلق عليها مهنة الوراقة و الوراقين. وأصبحت هذه الحوانيت مجالس للعلماء والشعراء والأدباء والطبقات الشغوفة بالقراءة و الإطلاع على العلوم المختلفة. هذه الحوانيت بلغت في بغداد وحدها في القرن الثالث الهجري اكثر من مئة حانوت. وتجدر بنا الإشارة الى عدد من الشخصيات التي كانت بارزة في هذا المجال ومنهم : أبو جعفرأحمد بن محمد بن أيوب الوراق البغدادي (٢٢٨هـ - ٨٤١م) ، عبد الله بن الفضل الوراق العاقولي (٣٢٨هـ - ٩٣٩م) ، أبو عبد الله الوراق الجهني الواسطي (١٥٩هـ - ٧٧٥م) و ياقوت الحموي المتوفى سنة (٦٢٦هـ - ١١٢٨م) وهو صاحب (معجم البلدان) و(معجم الأدباء) وغيرهما وكان وراقاً يتعاطى النسخ بالأجرة و يبيع الكتب.[١]

**٣ــ المكتبات في بلاد الأندلس.[٢]**

إن الاهتمام بالكتب و المكتبات شمل مشرق الدولة العباسية ،كما شمل مغربها . فكتب التاريخ كلها تشير الى وجود نهضة أدبية وحضارية وثقافية كبيرة ،حولت معها الأندلس والأقاليم التابعة لها الى مراكز إشعاع ونشاط حضاري وثقافي كبير ،كون ملوكها وحكامها أو أمرائها كانوا محبي العلم والثقافة وهذا جعلهم يملكون خزائن للكتب أو مكتبات ضخمة وليتنافسوا كذلك مع الحكام و الأمراء الموجودين في الجزء الغربي من عاصمة الخلافة العباسية . وبالإضافة للمكتبات الخاصة بهم كان هناك انتشار للمكتبات في المساجد والمدارس وظهرت المكتبات العامة.

لقد اسرف اهل الأندلس وبالغوا في إقتناء الكتب وتجليدها وزخرفتها ، وإشتهروا بحبهم وولعهم بالمكتبات الخاصة والتي كانوا يتفاخرون ويتباهون ويتنافسون بمحتوياتها

---

١ - كوركيس عواد .مصدر سابق...ص٧٩.

٢ - مصطفى ربحي عليان. الكتب و المكتبات في الحضارة...مصدر سابق...ص٨٠.

ومافيها وبنائها وترتيبها وكل مامن شأنه أن يظهر ثرائهم وفخرهم بها وبذلك تجاوزت كونها مكاناً للعلم والمعرفة . ويقال ان الحَكَمَ المستنصر صاحب الأندلس خلال حكمه (٣٥٠-٣٦٦هـ) انفق اموالاً طائلة لشراء الكتب والمصنفات من بلاد المشرق وكل الأقاليم الأخرى ،حتى بلغ مجموع مافي خزانته اربعمائة ألف مجلد وضاقت بها تلك الخزانة. وكان لهذه المكتبة أو الخزانة فهرساً مكوناً من أربع وأربعين كراسة في كل منها عشرون ورقة ،جمع من أجلها أمهر النساخ والمصححين والمجلدين والخطاطين. وقد عمرت هذه المكتبة في فترة حكم الخلافة الأموية في الأندلس ولكنها انتهت ونهبت محتوياتها وتوزعت كتبها في فترة حكم ملوك الطوائف. ولم تكن المكتبات الخاصة في الأندلس مقصورة على العلماء و الأدباء من الرجال وإنما شملت النساء الأندلسيات المولعات و المنشغلات بالعلم والأدب مثل عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم (٤٠٠هـ)والتي دعيت بعائشة القرطبية ، والتي كانت تملك خزانة علم كبيرة ،كما إنها كانت إحدى كاتبات المصاحف المشهورات .

وبهذا كانت المرأة المسلمة متفوقة في مجال العلم والأدب في ذلك العصر المزدهر بينما كانت مثيلاتها من النساء في أوربا يرزحن تحت الجهل و العبودية.

**٤ـ المكتبات في بغداد .**

يقاس تقدم أية أمة أو حضارة أو دولةٍ ما ، بعلمها و أدبها وثقافتها التي تنتجها وتصدرها ، ومدى تأثيرها في هذه الأمة أو الحضارة وفي باقي الأمم والحضارات.

وعا دةً توضع هذه الإصدارات والمنتجات في أماكن خاصة لحفظها تبعاً لنوعيتها ومواصفاتها . وقد أخذت هذه الأماكن مسميات مختلفة سواء في قديم الزمان أو في وقتنا الحاضر ومنها : دار الحكمة ، دار الكتب ، خزائن الكتب وغيرها من المسميات وهذه كلها تعني المكتبة كما تعرف في وقتنا هذا.

إن اختلاف هذه التسميات كان نتيجة لازدياد عدد المكتبات ودور الكتب في حواضر الدولة الإسلامية كبغداد وبلاد الشام و القاهرة وغيرها. ومن خلال كل ما سبق وذكر نجد ان لبغداد حصة كبيرة في عدد هذه المكتبات فهي كثيرة وخصوصاً خلال الفترة العباسية حيث كانت بغداد عاصمة للدولة العباسية . ونظراً لكثرة وتعدد المكتبات التي بلغت المئات، فهي كثيرة بكثرة الخلفاء العباسيين ووزرائهم و الشخصيات العلمية و المعروفة.

ومن أهم المكتبات التي كانت موجودة في تلك الفترة ومازال صداها وإسمها يتردد ليومنا هذا مكتبة بيت الحكمة.[1]

١- **مكتبة بيت الحكمة.** لقد وردت بأسماء متعددة مثل **بيت الحكمة ، خزانة الحكمة ودار الحكمة** . وهي أكبر مكتبة وردت أخبارها في العصر العباسي . أسسها الخليفة هارون الرشيد (خلافته ١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م) . وقد ذكر ابن النديم في ترجمة أبي سهل الفضل بن نوبخت انه (كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد) .ويعتقد الكثير من الباحثين أن بيت الحكمة الذي ظهر في زمن المأمون كان إمتداداً لبيت الحكمة في زمن و عصر هارون الرشيد . وكانت الكتب تجمع فيها وتترجم المؤلفات اليونانية والفارسية وتنسخ . ويعمل في هذه المكتبة علماء من مختلف الثقافات ومنهم الخوارزمي، الكندي ، يحيى بن أبي منصور وأولاد موسى بن شاكر. وقد قام هارون الرشيد بتكليف يوحنا بن ماسويه (وهو نصراني سرياني ) بترجمة الكتب الطبية اليونانية القديمة و التي جلبها المسلمون بعد فتوحاتهم لعمورية وبلاد الروم ، وكذلك وضعه أميناً للمكتبة . ورتب له كُتاباً ومعاونين مهرة ليكتبوا مايطلبه منهم. وعملَ في هذه المكتبة أيضاً أبو سهل الفضل بن نوبخت (وهو فارسي الأصل) وكان يقوم بترجمة الكتب الفارسية الى العربية.

لقد نمت هذه المكتبة وإكتملت وإتسعَ العمل فيها في عهد المأمون ، الذي كان أشد ميلاً الى الفلسفة و العلوم العقلية . وقد طلب من ملك الروم إنقاذ مايختار من كتب العلوم الى الفلسفة و العلوم العقلية ، والعلوم اليونانية الطبية و الفلسفية القديمة المخزونة لديهم وأرسل الحجاج بن مطر ، ويوحنا بن البطريق وسِلم (صاحب بيت الحكمة) لجلبها ،ثم أمر يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحق بترجمتها وعَيَنَ سِلماً خازناً لها.

كان بيت الحكمة مركزاً للثقافة ومنتدى للعلماء وجامعة كبيرة يتصل بها مرصد ومكتبة ، ومن المؤكد إنها كانت ملحقة بقصر الخليفة وليست في بناء خاص بها ،وهذا ماإعتاد الخلفاء أن يفعلوه في قصورهم . وساهمت هذه المكتبة مع مكتبات أخرى كمكتبة الفاطميين في القاهرة ومكتبة الأمويين في قرطبة في حفظ التراث الإسلامي والعلمي والإنساني الى أن حرقها التتار عام ٦٥٦هـ.

٢- **دار العلم ببغداد** .[2] وهي مكتبة أسسها رجل جمع بين العلم والأدب و السياسة أيام الدولة البويهية وهو الوزير شابور بن أردشير (المتوفى سنة ٤١٦هـ - ١٠٢٥م) .

---

١ - كوركيس عواد . مصدر سابق...ص١٠٥-١١٢.

٢ - كوركيس عواد.مصدر سابق...ص١٤٠-١٤٥.

نقل اليها كتباً كثيرة من أفضل مانسخ بخطوط أشهر الخطاطين وكباء العلماء ، وبلغت الكتب ١٠٤٠٠ ــ عشرة آلاف واربعمئة مجلد ،منها مائة نسخة من المصاحف بخطوط من أسرة بني مقلة . وصارت كتبها تزداد بفضل هبات العلماء الذين يرغبون أن تتضمن هذه الدار مؤلفاتهم لإنها تخلد بخلودها . وعملَ لهذه الخزانة فهرساً ذكرَ فيه العلوم التي احتوتها تلك المكتبة. وكانت هذه الدار مجمعاً للعلماء و الباحثين ، ومن أشهر روادها الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري (المتوفى سنة ٤٤٩هـ - ١٠٥٧م) . لم تعش هذه الخزانة طويلاً لأن الأحداث التي تعرضت لها بغداد كان لها أثر سيئ فقد نهبت بعض كتبها واحترقت فيها خزانة الكتب هذه.

إضافةً لهذه المكتبات هناك مكتبات أخرى عامة وخاصة منها على سبيل المثال لا الحصر: خزانة المدرسة النظامية ببغداد ، خزانة الكتب في مسجد أبي حنيفة ،خزانة كتب الوقف بمسجد الزيدي ، خزانة كتب الرباط بالحريم الطاهري ببغداد.

وتجدر الإشارة الى ان الأستاذ كوركيس عواد في كتابه ((خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة )) قد أشار للمكتبات في العراق منذ بدء الخليقة ولغاية العام ١٠٠٠ للهجرة ، وركزَ على المكتبات في بغداد كثيراً ، ويعد هذا أكبر دليل على شهرة وعالمية بغداد منذ عصر إزدهار الحضارة الإسلامية.

ومازالت بغداد تنبض بالحياة بالرغم مما تعرضت له من نكبات سواء الإحتلال الخارجي أو حرق الكتب و المكتبات (العامة و الخاصة) ، وسرقة المكتبات و محتوياتها حتى يومنا هذا وتحديداً بعد الإحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ وسرقة مكتباته ومراكز علمه وآثاره مروراً بكارثة مكتبات شارع المتنبي في ٢٠٠٧/٣/٥ التي أحترقت كتبها وتبعثرت وتهدمت جدران مكتباتها واستشهدَ أصحابها وقرائها. ولكنها وكبغداد عادت لتقف ومن جديد في محاولة لردم الهوة و الفجوة التي تعرضت لها الاسواق خاصة و بغداد عامة ولأكثر من مرة.

**الكتب والمكتبات في بغداد اليوم .**

يعرف عن العراقيين بصورة عامة و البغداديين بصوة خاصة حبهم للقراءة والإطلاع والكتابة مما جعل المجتمع يمنح المتعلمين و الكتب صفة القداسة . فالمعرفة كانت تستحصل من الكتب و المكتبات التي كانت منتشرة في أنحاء بغداد . وكانت هذه المكتبات متعددة الأنواع و التخصصات فمنها :المكتبات العامة ،المكتبات الخاصة (في الدور والمنازل) ،المكتبات الجامعية (المركزية والمتخصصة) ،مكتبات المعاهد ،مكتبات

المدارس وحتى مكتبات رياض الأطفال التي ظهرت حديثاً والتي تضم كتباً ذات طبيعة ومعلومات خاصة (عن الأطفال) .

وبالإضافة لهذه الأنواع هناك مكتبات موجودة ومتخصصة ببيع الكتب منتشرة في كافة أنحاء بغداد ،أما مركزها الرئيسي وتجمعها فهو في شارع المتنبي ومن ثم سوق السراي بالدرجة الأولى. .

وشارع المتنبي تحديداً يمكن فيه ملاحظة الجموع المتحركة بين الكتب والمكتبات المنتشرة على جانبي الشارع وعلى ممراته وأرصفته . هذا الشارع يتقاسمه المكتبيون ممن أمتهنوا التجارة بالكتب ،وإعتبروها أجمل مهنة تعنى بالمعرفة والتطلع الى المستقبل ومتى ماسألتهم عن كتابٍ ما أو معلومةٍ معينة (وخصوصاً كبار السن) يبدأوا بسرد كل ما يعرفونه من معلومات وكأنهم يقرأون كتاباً حفظوه عن ظهر قلب . وتجدر الإشارة الى أن من رواد هذا الشارع المثقفين وطلاب العلم والباحثين المهتمين والزوار الآخرين ممن تملكهم حب الفضول والإستطلاع والرغبة في معرفة كل المعروض الجديد و المعلن.

وتجدر الإشارة الى أن هناك بحثٌ بعنوان :"المكتبات في بغداد بين الماضي والحاضر: مكتبات شارع المتنبي" منشور في مجلة التراث العلمي العربي والتي يصدرها مركز إحياء التراث العلمي العربي / جامعة بغداد ، العدد الثامن/ لعام ٢٠٠٩ . ويتناول هذا البحث المكتبات في شارع المتنبي ،ذلك الشارع العريق الذي توجد فيه أوائل المكتبات القديمة والعريقة في بغداد ،وتم فيه تأشير بدايات وتأريخ كل مكتبة من مكتباتها العريقة القديمة والتراثية ، ونشاطاتها وواقع الكتب فيها.

أما بالنسبة للكتاب فقد عانى أثناء الحصار الذي فرضَ على العراق في العام ١٩٩١ (شأنه في ذلك شأن كافة مفاصل الحياة ومنها المكتبات )، أزمة كبيرة سواء أكان الكتاب مستورداً أو مطبوعاً ،فقد عانى من شحة الورق والأحبار الخاصة بالطباعة ، وصعوبة التعامل بالعملة الصعبة (الدولار) والرقابة والتوزيع ، لذلك عانى تجار الكتب وأصحاب المكتبات والمهتمين من المثقفين والقراء من صعوبة شراء الكتب من المعارض التي كانت تقام خارج العراق كما وعانوا إن حصلوا عليها وإشتروها من صعوبة إدخالها ، إذ يصار عند إدخالها الى استحصال موافقات خاصة ليتم لهم السماح بإدخالها . كل هذه المعاناة في الحصول على الكتب جعلت من التجار يعرضون هذه الكتب للبيع بأسعارباهضة يعجز عن شرائها من يحتاجها من ذوي الدخول المحدودة. وهناك مفارقة تجدر الإشارة اليها هي أنه في الوقت الذي كان المهتمون بالكتب يحاولون الحصول على كتابٍ ما بدأوا ببيع

محتويات مكتباتهم الخاصة لتمشية أمورهم المعاشية إذ باعوها بأبخس الأثمان لغرض استمرار حياتهم .

إلا أنه وفي نهاية التسعينيات من القرن الماضي وبداية الألفية الجديدة ( لغاية ماقبل إحتلال العراق عام ٢٠٠٣) ، سمحت الدولة باقامة معارض للكتاب (تعلن عنها) لتقام على أرض أحدى المكتبات الجامعية كالمكتبة المركزية لجامعة بغداد في الجادرية أو في مقر الجامعة المستنصرية في مجمع الوزيرية ، معرض بغداد الدولي و الجامعة التكنولوجية وغيرها من المواقع الأخرى ، تتضمن كتباً ومصادر علمية أخرى حديثة لعدد من دور النشر العربية والأجنبية ، وكانت الكتب والمصادر الأخرى تباع بأسعار مرتفعة (بالعملة الصعبة – الدولار) ويتم معادلتها بالدينار العراقي وبالتالي تكون أسعارها مرتفعة مما لايتاح المجال للمهتمين والمتعلمين والمثقفين وحتى الطلبة للدراسات الأولية والعليا فرصة شرائها والحصول عليها . لكن المكتبات الجامعية إستطاعت رفد مكتباتها وخصوصاً المركزية منها بالعديد من هذه المصادرمما فسح المجال للطلبة والباحثين والمهتمين للإستفادة منها كالمكتبات المركزية لكل من جامعة بغداد ،التكنولوجية و المستنصرية بالإضافة الى مكتبات المعاهد والمؤسسات الحكومية و الوزارات ومنها مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد و فروعها في كافة أنحاء العراق ، كذلك مكتبة المتحف العراقي ودارالكتب والوثائق (المكتبة الوطنية) والمكتبات التابعة للقطاع الخاص.

ومن دور النشر التي رفدت هذه المعارض بالمصادر العلمية على سبيل المثال لاالحصر : دار الرضا للنشر والتوزيع ، مركز دراسات الوحدة العربية ودار الشروق للنشر والتوزيع وغيرها .

في تلك الفترة نشطت تجارة أخرى خاصة بالكتب والمكتبات ألا وهي تجارة الإستنساخ والتي كانت تتم عبر جهود فردية وبنسخة واحدة أو نسختين .فقد أصبح الباحث وخصوصاً طلبة الدراسات الأولية والعليا والباحثين من أساتذة الجامعات والمهتمين بالكتب يسعى للحصول على نسخ من الكتب المستنسخة والتي تكون كلفتها قليلة جداً مقارنةً بأسعار الكتب الأصلية المرتفعة الثمن.

ان الإزدهار الذي حصل للمكتبات في تلك الفترة واجه كارثة كبرى أخرى ، ففي العام ٢٠٠٣ خربت أغلب المكتبات بعد الإحتلال الأمريكي للعراق ونتيجة لإنتشار الفوضى سرقت آلاف الكتب من المكتبات الجامعية في بغداد والمحافظات بالإضافة الى المكتبة الوطنية ومكتبات الأوقاف وغيرها ،ولم يكتفى بالسرقة بل أحرقت، وهربت

المخطوطات الى خارج العراق ، وسرقت الآثار القديمة السومرية والبابلية والآشورية ومجموعات من المقتنيات التي سجلت تأريخ العراق كمهدٍ للحضارة قبل الآف السنين ، وفقدت المخطوطات التي ترجع للحقبتين العباسية والعثمانية والتي كانت ثمينة للغاية أسوةً بالمخطوطات والآثار الأخرى.

إن حرق الكتب وتدميرالمكتبات هذه يعد استمراراً للكوارث التي يعيد التاريخ تكرارها ومنظرها منذ القدم ، فحين غزا المغول بغداد (دار السلام) عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) أحرقوا الكتب والمكتبات ورموا بالآلاف من الكتب الى نهر دجلة الذي تحول لونه أزرقاً وأسوداً من كثرة الحبر الذي كتبت به الكتب "وبنوا إسطبلات الخيول وطوالات المعالف بكتب العلماء عوضاً عن اللبن" وذلك ماذكره الأستاذ كوركيس عواد في كتابه (خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة) .

واليوم تكررت تلك الصورة عام ٢٠٠٣ ، وأعيدت مرة أخرى بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٥ عندما حصل انفجار هائل وحريق كبيرودمار شامل لشارع المتنبي العريق بمكتباته وكتبه ومصادره ، هذا الإنفجار الذي أختلطت فيه دماء العراقيين رواد ذلك الشارع من شهداء وجرحى بأوراق الكتب المتناثرة والكتب المحترقة لمكتبات ضمت بين جدرانها ورفوفها الآلاف من الكتب التأريخية و الدينية والعلمية والأدبية والقانونية وغيرها. إن هذه الأحداث المتعمدة من حرق للكتب والمكتبات والسرقة والنهب ماهي إلا محاولة متعمدة لتدنيس قدسية المعرفة وتشويه للتأريخ وسبب أساسي لتعطيل التقدم في الحياة وبناء حضارة العراق (بصورة عامة) وبغداد (بصورة خاصة) وابعادها عن النهضة العلمية وجعلها نهباً للمحتل و للدول التي تريد للعراق أن يكون دولة متخلفة وضعيفة ، ولكن هيهات فلقد بدأ البغداديون يستعيدون ثقتهم بنفسهم وعمروا ماهدم وبنوا من جديد مكتباتهم الجامعية ، وكذلك مكتبات شارع المتنبي الذي سيعود اليه الأدباء وطلاب العلم والمثقفين كافة .

إن ماحدث في بغداد خاصةً والعراق ككل لم ينهي مسيرة الحياة بل بدأت حركة تدفق الكتب بعد فسح المجال لها بالدخول الى الأسواق العراقية وخصوصاً أسواق ومكتبات بغداد ،الا أن هذا التوفر في الكتب وأنواعها واجه إشكالية أخرى ألا وهي حركة بيعه المتواضعة بسبب قلة القراء وارتفاع الأسعار التي تعرض بها الكتب والتي تكون غير ملائمة لشريحة القراء وهم الشريحة المتعلمة في الغالب والذين هم الوسط الحيوي لتداول الكتب العلمية والثقافية والأدبية وغيرها ، وإرتفاع الأسعار هذه جعلت تجار الكتب

يميزون مامطلوب من كتب (يكثر عليها السؤال و الطلب) مما جعلهم يفرضون الأسعار التي يريدونها وهو قد يكون ضعف السعر الأصلي للكتاب . وهنا نشطت مهنة الإستنساخ مرة أخرى وأعيدت الى الحياة لتلبي احتياجات المهتمين بها والباحثين عنها.

ولو تحدثنا عن الكتب والمكتبات (في عصر تكنولوجيا المعلومات والرقمنة) فإنها اصبحت اليوم هي الإنترنت بعالمه الواسع والكتاب هو صفحة من صفحات المواقع الموجودة في هذه الشبكة العالمية التي أدخلت العولمة الى مكتباتنا وبيوتنا بل وحياتنا الخاصة فهي تتيح الآلاف بل الملايين من الكتب والمعلومات على صفحاتها ،بعضها بشكل مجاني والذي يعطي معلومات قد تكون بسيطة ومقتضبة (كخلاصة) لكتابٍ ما وإن أردت الحصول على كامل الكتاب الألكتروني فما عليك سوى دفع مبالغ قد تكون مرتفعة من أجل الحصول على نسخة ألكترونية لذلك الكتاب ، وهذا يجعل القارئ ايضاً أمام اشكالية اخرى هي ارتفاع الأسعار وعدم امكانية إرسال ذلك المبلغ إلا بطريقة الدفع و التحويل الألكتروني المباشر، ومن خلال منافذ نفتقر لوجودها في العراق. هذه الإشكالية تعد صعبة للغاية في ظل ظروفنا اليوم وقد تكون سهلة ومتاحة ربما بعد عشر سنوات أو أكثر بأذن الله .

هذه الصعوبات بالإضافة الى عدم دقة المعلومات وصلاحيتها أو الشك في مصداقيتها وهي منشورة على صفحات الإنترنت حدت بالعديد من الجهات البحثية و العلمية على حث الطلبة بعدم استقاء المعلومات من الإنترنت فقط بل الإعتماد على الكتب و الدوريات (وكلٌ حسب تخصصه) في الحصول على المعلومات لإن الإشارة للمصدر الذي أخذت منه المعلومة مهمة للغاية في تقييم البحث والإستفادة من المعلومات التي تضمها صفحاته.

إن عالم تكنولوجيا المعلومات اليوم واسعٌ للغاية وأصبحَ يدخل في مختلف نواحي الحياة، فمن الصعب أن نجد جانباً لايكون فيه تأثيرٌ لها وعليها ،وما المكتبات الرقمية و الكتب الألكترونية اليوم إلا مثالاً على تغير العالم وبتأثير العولمة (Globalization) فيه فأصبحت الدول اليوم تتيح مكتباتها على الإنترنت من خلال موقع خاص لها وفيه تبيع الكتب الألكترونية بشكل مباشر ولكن بتسديد مبالغ للشراء قد تكون طائلة لشرائه وإيصاله إليه . هذا التقدم الذي ذكرناه بقدرٍ ما يتوفرفيه العديد من الإيجابيات إلا أنه يواجه سلبيات قد تكون أكثر من ايجابياته ، والخوض في هذا الموضوع يحتاج الى بحوث كثيرة ومناقشات تبين ايجابيات وسلبيات كل جزء على حدة سواء الكتاب أو المكتبة بشكلها التقليدي أو بشكلها الألكتروني الذي يفضله البعض ويرفضه البعض الآخر.

إن الحضارة العربية الإسلامية بكل شواخصها قادرة على أن تضيف الى صـــفحاتها بل الى مجلداتها صفحات و مجلدات أخرى عن القارئ في العراق ،والذي يمثل شـــريحة واسعة من أبناء الشعب فهو عالم وفيلسوف وقاص وروائي ومؤلف كتب وأستاذ جامعي ، وطالب دراسات عليا وكلهم قادرون على إغناء المكتبات بمؤلفـــات وأطـــاريح ماجســـتير ورسائل دكتوراه ودراسات وبحوث تغني سجلهم الشخصي وترفد المكتبات و تبنيهـــا مـــن جديد وتعزز مسيرة الحياة وترسم ملامح جديدة للحضـــارة العربيةالإســـلامية فـــي أرض الحضارات . وسيظل العراق يقرأ ماتكتبه مصر وتطبعه بيروت الى أبد الدهر.

**الإستنتاجات :**

١. إن الأمة العربية غنية بتراثها وأمجادها اللذين بنتهما خلال عصـــورها الماضـــية التي عاشتها على هذه الأرض رغم ماأصابها من نكسات ولكنها وكغيرهـــا مـــن الأمم الأخرى مرت بأطوار ومراحل متنوعة حتى وصلت الى ماهي عليـــه فـــي وقتنا الحاضر.
٢. كان للمكتبات العربية الإسلامية نصيبها مما أصاب هذه الأمة من نكبات وكوارث ولكنها بالرغم من ذلك أدت رسالة حضارية نبيلة وحققت المعنى الحقيقـــي مـــن إنشائها ودورها في حفظ التراث العربي الإسلامي والتراث العلمـــي و الإنســـاني وغيره.
٣. لم تكن مسألة كثرة المكتبات في العراق عامة و بغـــداد خاصـــة وليـــدة العصـــر الإسلامي والحضارة الإسلامية وحدها ، وإنما إضافة الى ذلك وَرَث العراق حبـــه للمكتبات منذ القدم فقد أنشأت أقدم المكتبات فيه في زمن وعصر بابـــل وآشـــور وكانت كتبها على شكل رقم طينية ، نقوش في جدران المعابد والقصور ،ماكتـــب على العظام والرقوق، البردي او ما عرف (بالقرطاس) قبل أن يعرف الـــورق أو ماكان يسمى حينها بالكاغد.
٤. تميزت المكتبات الإسلامية بأنظمة متقدمة في التصنيف والفهرســـة ، كمـــا اهـــتم الأمراء والحكام بتزيينها وتطويرها وجلب كل مامن شـــأنه أن يثريهـــا ويغنيهـــا ويزيد من اعدادها من كتب ، نساخ ومترجمين وأمناء ذو مراتب علمية هامـــة . وتطرقنا بالحديث لعدد منهم من خلال حديثنا عن المكتبات في بغداد أيام ازدهـــار الحضارة الإسلامية.

٥. إن الآثار السلبية للحصار على العراق ومن ثم العدوان عليه عام ٢٠٠٣ انعكس بدرجة كبيرة على حاجات المكتبات لتوفير المراجع والمصادر الحديثة لروادها والمستفيدين منها بمختلف شرائحهم وتخصصاتهم والتي تناقص فيها تقديم الخدمات المكتبية من إعارة وغيرها.

٦. أن تعرض المكتبات العراقية للسلب و النهب أدى الى شحة المصادر فيها وخصوصاً المصادر التراثية والتاريخية والدينية و المخطوطات وهذا انعكس على الطلبة وحاجتهم اليها .

٧. إن فقدان الأمن وكثرة الإنفجارات في مختلف مناطق بغداد سواء دوائر ومؤسسات أو جامعات وأسواق وغيرها جعل المكتبات تغلق ابوابها في وقت مبكر وهذا انعكس سلباً على الطلبة وتحديداً طلبة الدراسات العليا لأنهم يحتاجون الى البقاء في المكتبة لوقت طويل.

٨. في نهاية بحثنا هذا نطرح عدداً من التساؤلات قد تكون في غاية الأهمية ونأمل أن تتم الإجابة عليها في المستقبل :

١- أين هي مكتباتنا اليوم من مكتبات أجدادنا وحضارتنا السابقة هل حافظنا عليها وطورناها أم سرقناها وأهدرناها وجعلناها عرضةً لحقد الحاقدين على حضارتنا وتراثنا؟

٢ - هل مازال حب الكتاب والقراءة والعلم موجوداً في دواخلنا أم إننا تخلينا عنه في ظل زحمة الحياة حولنا ودخول التقنيات التكنولوجية الحديثة الى عالمنا وما نتعرض له من أحداث قد تكون جساماً فتهزنا وتجعلنا نختبئ ولم نعد نرغب بالإستمرار و الوقوف على أقدامنا من جديد ؟

## المصادر


١. مطر، حسين. نشأة الكتابة وتطورها. مجلة الفيصل، ع١٠، ١٩٧٨.

٢. هسل، ألفرد. تأريخ المكتبات. القاهرة ، دار الثقافة، ١٩٨٠.

٣. عواد ، كوركيس. خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة، بيروت ، دار الرائد العربي ،١٩٨٦.

٤. قاسم ، حشمت . مصادر المعلومات وتنمية مقتنيات المكتبة ، القاهرة ، دار غريب، ١٩٨٥.

٥. Harrods Librarian Glossary. ٥th ed. , N.Y. ,MacGraw Hill,١٩٨٤ .

٦. شرف الدين ، عبد الوهاب .المعجم الموسوعي لعلوم المكتبات والتوثيق والمعلومات. الرياض ، دار المريخ ،١٩٨٨.

٧. همشري، عمر وربحي مصطفى عليان.اساسيات علم المكتبات والتوثيق والمعلومات. عمان، دار الرؤى العصرية، ١٩٩٦.

٨. عليان، مصطفى ربحي. الكتب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية عمان، دار الصفا ،١٩٩٦.

٩. اليونسكو . المؤتمر السنوي ال١٦ المنعقد في ١٣/نوفمبر-ت٢/١٩٧٠.

١٠. الشامي، محمد أحمد وسيد حسب الله. المعجم الموسوعي لمصطلحات المكتبات والمعلومات. الرياض، دار المريخ للنشر ،١٩٨٨.

١١. بدر، أحمد. المكتبة والمجتمع. مجلة مكتبة الجامع ، مج١ ، ع٣ ،١٩٧٢.

١٢. سراج الدين ، اسماعيل (تقديماً) وخالد عزب (تحريراً). تأريخ الكتابة من التعبير التصويري الى الوسائط الإعلامية المتعددة (مترجم من الفرنسية الى العربي)، الإسكندرية، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٥ ، سلسلة دراسات في الخطوط (٣).

١٣. صوفية، محمد مصطفى . من مكتبة المخطوطات العربية. مجلة الوثائق والمخطوطات ، س١ ،ع١ ،١٩٨٦.

١٤. توفيق، محمد سبع. قيم حضارية في القرآن الكريم : عالم ماقبل القرآن ، ج١، القاهرة، دار المنار، (د.ت.).